الاستاذ محمد يوسف مقلد

زينب فواز

مع نشأتها الاولى

– ٥ –

أشعر بأسف لا حد له ، كلما بحثت عن سيرة زينب في نشأتهـا الأولى – في تبنين – وعدت بما لا يُرضي الغاية ويحقق الأمل !

فالكاتبة التي تحدثت عن حياة أربعمئة وخمسين إمرأة من سيدات الشرق والغـرب ، سكتت عن ذكر أي شيء عن نفسها هي ، وآثرت أن تبقى ساكتة !

ولكن التاريخ لا يسكت .. لا يسكت عن ذكر كل شيء من خير أو شر مهما طـال الزمن ، وامتدت الأيام ..

كان من أعز أمانينا أن نعرف « بداية » حياة هذه المرأة القيمة ، كما عرفنا نهايتها :: كان يهمنا مثلا أن نعرف ، كيف ، وأين تعلمت ألف باء اللغة .. وعلى من قرأت القرآن وكيف تدرّجت حياتها منذ كانت طفلة صغيرة في ملاعب الصبا حتى تاريخ دخولها القاهرة وزواجها – فيها – لأول مرة ..

بل لشد ما نتمنى أن نقف على أوصاف البيت الذي أخرجها .. كـان – ولا شك – كمعظم بيوت ذلك الزمان ، بيتاً (عربياً) مقطعاً بقناطر مزدوجة كأقواس النصر :: فيـه (سدة) كبيرة ترزح بأشغال مختلفة من حاجات الحياة عند الفلاحـين ، و (قاطع) من (الكواير) الطين المعدّة لخزن الحبوب والطحين وما إلى ذلك :: ودار فسيحة تتسع لربط الخيل والبغال والحمير ، ولإيواء البقرات في الصيف :: ومثل هذه الدار لا بد لها من بوابـة كبيرة حجمها يقاس بمقاس « تقديري » خالص ، وتعريفه « مَرْقة الجمل محملا قشاً » ..:

تلك هي أوصاف معظم البيوت ، وخاصة البيوتات الكبيرة القديمة في جبل عامـل ، أمثال بيت علي حسين بن عبد الله بن حسن ابراهيم بن محمد يوسف فواز ...

وصفت لنا زينب كل ما رأته بعينيها وانطبع بذهنها عن عصرها إلا نفسها وظروفها الأولى – فلم تحدثنا عنها شيئاً . لقد وصفت لنا مثلا قصر علي بك الأسعد في قلعة تبنين(★) وأنه « كان فيه جناح للضيوف يتسع لألفي شخص ! وفيه من المفروشات والاثاث ما يليق بذلك القصر الفاخر ، كل غرفة مجهزة بكل ما يلزم لها لراحة الضيوف ، وله فرّاشون مختصون بخدمة الضيوف فقط ، والطباخون كذلك ، عدا الذين يخدمون المقيمين من العائلة وكل هؤلاء الاتباع والحاشية تصرف لهم الرواتب من دائرة الامير » الخ .. وهذا وصف حسّي لشاهدة عيان .. ومنه نستطيع أن نستوحي مدى العز والجاه اللذين عرفتهما قلعة تبنين في غابر الازمان !

ما أحلى زينب لو وصفت لنا بيت أبيها وجانباً من حياتها .. أتراها كانت تستحي بذلك لانها بنت فلاح وبيت فلاح .. ؟

غير بعيد أن يكون راود ذهنها شيء من هذا .. لأن التقاليد العقلية كانت لا ترى في حياة الفلاحين ما يستحق الذكر ..! لقد بالغت زينب في نكران ذاتها مبالغة مؤذية لنفسها وللتاريخ معاً ! ولكن من يعرف تقاليد عصرها يعذرها .. فقد كان نكران الذات حلية أخلاقية فيه .. وآثار زينب تدل دلالة واضحة على أنها كانت من النساء المسلمات المتدينات المتمسكات تمسكاً قوياً بآداب الدين والفضيلة والأخلاق الحية التي تأبى حب الظهور .. ولقد شاءت أن تضيف إلى صفاتها العالية فضيلة نكران الذات تمشياً مع آداب عصرها .. أولعلها – مما أرجح – تعمدت السكوت عن نفسها لتترك لغيرها أن يتحدث عنها كما تحدثت هي عن بنات جنسها والإشادة بمزايا فضلياتهن ، وذلك من باب « ليمدحك الغريب لا فمك » ذلك حق لها علينا .. ولكنها بإغفالها ذلك كلياً ، فوّتت علينا معرفة ما لا يمكن أن يعرفه عن حياتها أحد سواها .. ولم يقم أحد من معاصريها في تبنين بهذه المهمة ، فبقيت سيرتها مفتقرة إلى بعض عناصر الموضوع الذي نحن بصدده .. صحيح أن مثل هذا النقص لا يؤثر في عموميات العمل ، ولكني كنت أوثر جداً أن لا يكون !

إن كتابة السير وتراجم الأعلام ، لا يجمّلها شيء مثل التحدث عن مرحلة الصبا الأولى لحياة صاحب السيرة ، لأنها بذلك تكتسب طابع الوصف القصصي ، الشيء الذي يجعلها أكثر رونقاً وجاذبية للقارىء ..

(★) الدر المنثور صفحة ٤٢٨

لقد أدركت في مطلع صباي في تبنين عجوزاً قديمة تعرف بـ « أم نمر (١) » وهي إمرأة حبشية ، كانت تعرف زينب فواز معرفة تامة وقد حدثتني عنها ووصفتها لي وصفاً مقتضباً هذا نصه بالحرف :

« كانت ـ أي زينب ـ في القلعة عند الست فاطمة .. (٢) كانت إمرأة فهيمة .. كانت قمحية اللون جميلة .. تزوجت وهي في القلعة رجلا من بيت حمود (٣) كان رئيس السواس (٤) عند الأمير علي بك .. »

ذلك كل ما ظفرت به من معلومات محلية من « أم نمر » ولم تكن نفسي مهيأة في ذلك الحين (١٩٣٤) للعناية بأمر زينب فواز ، كما هي اليوم .. فلقد كان من الممكن ، لو أن الأسئلة يومها كانت نابهة لمثل هذا القصد ، أن أقف على أكثر ما سمعت وما أريد ، من أم نمر هذه ، عن نشأة زينب في مطلع صباها ، ومجمل حياتها الأولى .. وعنـــد ما تخطيت أيام الصبا ، وقوي وعيي على هذا الموضوع ، كانت الرّاوية الحبشية قد انتقلت إلى رحمة الله .. ولم يبق أمامي سوى البحث التاريخي عن بنت بلدنا النابغة ..

وكنت يومئذ (١٩٣٦) لا أتصل بالتاريخ ولا بكل ما اسمه قديم إلا عن طريق ما أقرأ في مجلة جبل عامل الأولى « العرفان » .. التي كان العامليون قبل ربع قرن لا يقرأون سواها أو بالأحرى لا يجدون أمامهم سواها .. حتى أنها لكثرة شيوعها وانتشارها بينهم صار يعتقد كثير من الأميين والبسطاء ، أن كل كتاب يرونه ، هو « العرفان » ..!!

والواقع ، أن تاريخ جبل عامل ، قديمه وحديثه ، مدين بالكثير العميم من الفضل لهذه المجلة وصاحبها المفضال ! كما أن أكثر أدباء جبل عامل ، وخصوصاً المشاهير منهم ، مدينون بوجودهم الأدبي ، وانبثاق شهرتهم للعرفان .. فأسماؤهم لمعت ، أول ما لمعت فيها ..!

في رواية أخرى

وفي رواية أخرى ، أوردها صاحب العرفان (٥) أن زوج زينب الأول ـ الحمودي ـ لم تكن وظيفته رئيس سواس الخيل كما قالت « أم نمر » آنفاً ، وإنما كان صقاراً (أي يتولى

---

(١) أم نمر دكروب ، وهو رجل معروف في تبنين لا يزال حياً .

(٢) هي السيدة فاطمة أسعد الخليل ، الواردة ترجمتها في الدر المنثور .

(٣) آل حمود عائلة معروفة في تبنين وبنت جبيل .

(٤) أي رئيس سواس الخيل . وهي خدمة ممتازة في ذلك الحين ، تعادل وظيفة رئيس الحرس الخاص في بلاط ملك ..

(٥) ج ١ و ٢ المزدوج من المجلد ١٨ من العرفان .

أمر صقور الصيد) عند علي بك . ومثل ذلك قال السيد محسن الأمين في «أعيان الشيعة » (١)

وعلى كل حال ، فهذه الرواية لا تعني بطلان رواية أم نمر ، « فرتاسة » اصطبلات الخيل في بلاط بكوي كبلاط الملوك في القلعة ، لم تكن تعني مطلقاً أنها خدمة وضيعة .. بل على العكس ، تعني خدمة رفيعة عند من يعرفون تقاليد ذلك العصر في الجاه والحظوة .. ورئيس اصطبلات البلاط ، كان من تقاليد المراتب عند ذوي السلطان ، أن يكون هو نفسه رئيس حملة صقور الصيد . وهذا يعني على وجه التأكيد أن الرجل الأول الذي مرّ بحياة زينب فواز ، كان من « المرافقين الخاصين » للأمير .. وأنه كان من علية القوم ، لا من طبقة الخدم !

وهذا ــ وهو ثابت ــ يدل على أن صاحبة الدر المنثور لم تكن فتاة عادية ، بل كانت من علو الشأن بمنزلة لا يطمح إلى طلب يدها إلا كل ذي حظ عظيم .. وأي حظ في ذلك الزمان أكبر من ذاك الذي يقال عنه أنه من حاشية الأمير ..!

ومن دواعي الفخر الكثيرة في سيرة حياة زينب أنها كانت « بنت أبوين فقيرين » (٢) فكيف تسنى لها أن تشق طريقها إلى العلم والأدب ، فالشهرة الواسعة رغم أن طريقها كان مليئاً بالعوائق والمثبطات ، ومنها الفقر ، والتقاليد الرجعية وما إلى ذلك ؟!

حقاً إن ذلك لعجيب ... ولكن تاريخ البشرية حافل بمثل هذه العجائب من النساء والرجال الذين بلغوا قمة المجد بالرغم من جميع الحوائل والصعاب !

وهذا بالذات ما اتفق لزينب فواز في حياتها الأولى ، وأكدته في قولها :

لولا احتمال عناً ، وبذل دماء ... لم يرقَ شخص ذروة العلياء!
(لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى) ... إلا يسفك دم على الأرجاء
هذا مقال الأقدمين ، ولم نجد ... بدأً لنا من شرعة القدماء
إن لم نشد ما قد أقاموا أسه ... فلنجتنب تهديم أي بناء
يا حسرة الآباء في أجدادهم ... إن أخجلتهم خيبة الأبناء
يا حسرة الأموات لو نشروا . فلم ... يجدوا الذي ظنوه في الأحياء!

هذا هو شعر الروح « الناهضة » حقاً ، شعر الفتاة التي يستعر قلبها ووجدانها بالإنفعالات المتحفزة إلى التقدم .. إلى الأمام .. إلى فوق !

---

(١) ج ٣٣ صفحة ١٧٤ - ١٨١ .

(٢) العرفان المجلد الخامس الصادر في ٢٧ كانون الثاني سنة ١٩١٤ وهو العدد الذي تضمن نعي زينب للعالم العربي .

إننا ليمكننا تصنيف زينب فواز مع عظيمات نساء العالم اللامعات بلا مبالغة أو تردد ، لأنها وجدت في عهد من أسوأ عهود البشرية تأخراً وانحطاطاً ورجعية ، وفي بيئة من أتعس بيئات الأرض وأكثرها شقاء وحرماناً ، وفي ظروف مفتقرة إلى كل وسائل العون المـــادي والأدبي ، وتيسير السبل لمن يريد أن يؤدي رسالة إجتماعية لبني قومه تخرجهـــم من الظلمات إلى النور ..

أجل .. في عهد كالعهد العثماني ، وبيئة كجبل عامل في ذلك الحين ـ ياله من حين ـ وفي أوضاع إجتماعية تسودها التقاليد البالية والتعصب المذهبي الذميم .. في مجاهل كل تلك العوامل والحالات ، نشأت الفقيرة زينب فواز ، وحملت رسالة النهضة النسائية كأول إمرأة تحمل مثل هذه الرسالة في الشرق العربي كله ! حملتها وجعلتها « قضيتها » المفضلة يوم لم يكن بعد في دنيا العرب والإسلام من يقول إن للمرأة مسألة إسمها « قضية »!!

في تلك الحقبة التي وصفنا ، أرسلت زينب فواز صيحتها الأولى في وادي النيل (★) فسمعها الشرق والغرب :

واهاً رجال الشرق ! صرنا عبرة ... بين الورى من سامع أو رائي!
وهناك في الأصلاب قوم بعـــدنا ... يحصون ما يمضي من الأنباء
فلئن نبا السيف الصقيل، ففي النهى ... والعلم ، سيفا حكمة ودهاء!
ولئن كبا الطرف الجواد ، فلم يزل ... للعقل ميـــدان لنيل علاء!
ولئن أبى ذو الحقد نيل رجائنا ... فالرأي يضمن نيل كل رجاء!
هيهات .. ما العميان كالبصراء ... كلا ، ولا الجهلاء كالعلمـــاء
نروي عن الماضين «مافعلوا»، فما ... يروي بنو الآتي عن الأبنـــاء ؟

في هذه الصيحة الحارة دعوة صريحة إلى « التجدد » لم يسبق أن سمع الشرق الخانـــع القانع بفقره وذله وجهله ، مثلها : وأغرب ما في الأمر أنها ـ فوق التجدد ـ دعـــوة إلى « استعمال العقل » .. والشرق في ذلك الحين كان مشهوراً بالخيال والإيمان بالغيبيات .. فلم يكن « العقل » مما يُتعامل به في السلوك الحضاري والإجتماعي .. فكم هو غريب، نضحك له بسرور وفخر أن نسمع صوتاً نسائياً يدعو إلى « العلم والحكمة والدهاء » .. دعوة يتبعها تأكيد بأن العقل والرأي « ميدان لنيل كل علاء » ..!

وكأني بها ـ رحمها الله ـ كانت ترمز في قولها « ولئن أبى ذو الحقد نيل رجائنا ـ كأني بها كانت ترمز بذلك إلى « الأجنبي » الجاثم على صدر مصر والبلاد العربية .. كما أنها ترمز

(★) الرسائل الزينبية طبع مصر .

بقولها « نيل رجائنا » إلى الإستقلال .. وغايتها من الإستقلال الظفر للمرأة بحريتها وإطلاق سراحها من سجن الحجاب والتقاليد البغيضة ، والسير قدماً في ركب الحضارة ..

وهكذا .. لمعت زينب فواز في تلك الظلمة الحالكة التي لم يكن أحد بأمل أن يرى فيها النور ، أو يسمع صيحة الحق ، وخصوصاً حول قضية المرأة الشرقية العربية ، وتحريرها من قيودها الثقيلة ..

ظهرت زينب فواز حين كانت المرأة في ليل دامس من الجهل والغباء ، فجاءت أول بارقة من الأمل في تاريخ المرأة العربية المسلمة في الشرق !

تقدير قديم ..

ما أنسى ، لا أنسى كيف كنت أجمع في نفسي – أيام الصبا – أشواق الإطلاع على أخبار زينب فوار من أجزاء « العرفان » القديمة ، وعواطف التشبع لكل شاردة وواردة عن بنت البلد النابغة .. وكم كانت تظهر علي علائم الإعتزاز والفخر كلما قرأت عنها أو سمعت الناس يذكرون إسمها مقروناً بالإعجاب والتقدير ..

حتى لقد أصبحت هذه العواطف والأشواق لمعرفة أخبارها « أمنية » غاية في نفسي على مرّ الزمن .. ولشدة ما تفاعلت هذه الأمنية في نظمتها شعراً في مطلع نشأتي الأدبية (١٩٣٥) في القطعة التالية :

قم سائل النيل عنها ، إنهـا شربت — من مائه ، فهي لن تظما إذن أبدا
هناك ، في كنف « الأهرام » مرقدها — فأينا زاره في مصر ، أو شهدا ؟
أم أينا وهو معتز – إذا ذكرت – — بها ، وإن هو من آدابها سردا :
يزيدنا – إن يكن يدري – ومن عجب — تراه يسرد عنها « بعض » ما وردا
رضاك .. إما أثرت العتب يا وطني — فطالما فيك قد ضاع النبوغ سدى!

•

تبنين ، ويحك ! حق القول ، فابتدعي — ذكرى ، يطير لها في الخافقين صدى!
تبنين ، لا القلعـة الشماء آهلـة — بأهلها ، لا ولا الحصن (١) الذي خلدا
« أين الأولى دانت الدنيا لعزتهم » — والخلق يوماً ، إلى سلطانهم سجدا!

ولكن تبنين « لم تبتدع الذكرى » التي كنت أحب وأأمل .. الذكرى التي « يطير لها في الخافقين صدى » كما أوحاها لي خيال الصبا له الشكر ..!

إلا أننا – من ناحية أخرى – لا نجد ما يبرر تقاعس أبناء هذه البلدة اليوم ، وقد أصبح

(١) قلعة صغيرة مقابل القلعة غربي البلدة تعرف بهذا الإسم .

فيها عدد غير قليل من الشباب المحسوبين على العلم والثقافة والمعرفة .. هؤلاء هم اليوم غير معذورين عن عدم تحسسهم المطالب الأدبية والمعنوية التي ترفع من شأنهم كشباب بلدة وأبناء وطن .. والإهتمام بحياة أديبة كزينب فواز ، تنتمي اليهم في أوثق وأهم وشائج القربى المحلية والوطنية والقومية . أمر يعتبر في صميم الواجبات المقدسة ، والأماني الغالية التي تجلب الفخر والإعتزاز .. ولعل هذه الإعتبارات بالذات كانت الباعث الأول لهذا العاجز في كتابة هذه الفصول بالقدر المستطاع .. فإذا جاءت محققة للغاية ، فذلك ما أرجو ، وإلا ، ففي نُبل الغرض المقصود ، خير عزاء عن كل إخفاق !

يميناً ، لو أن زينب فواز ، قُدّر لها أن تكون من وطن غير هذا الوطن ، وبلد غير هذا البلد ، ومن قوم غير هؤلاء القوم قومنا – وهي مَن هي – لرأينا ولسمعنا لها شاناً غير هذا الشان !

تحقيقات الميلاد والوفاة

تلك الحياة المنوّرة التي توهجت ذلك التوهج في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، وأنارت أحالك ظلمائنا ، يهمنا أن نعرف متى انبثقت ومتى انطفأت ..

إن تاريخ ميلاد زينب بالضبط – في أي يوم وأي شهر من شهور عامها كان – غير معروف . حتى هي نفسها لو كانت حية وسألناها لا تستطيع أن تعطينا الجواب المطلوب المضبوط ..

لقد كانت العادة الغالبة المشهورة أن « يحفظوا عام الولادة حفظاً ، ويرفقوه بحادثة بارزة محلية أو إقليمية أو عالمية لها تأثير في أذهانهم ، ، « فيعدون » كم مضى على هذه الحادثة .. والحاصل هو عمر الإنسان .!

وعلى كل حال ، قد اتفقت جميع مصادري التي رجعت اليها في تحقيق عام ميلاد زينب إنه كان عام ١٨٦٠ ميلادية .

من المصادر التي ذكرت تاريخ ميلادها بهذا العام « بلاغة النساء في القرن العشرين » لفتحية أحمد . فقد قالت :

« زينب فواز العاملية (١٨٦٠ – ١٩١٤) ولدت في تبنين ضمن قائمقامية صيدا ، ولما بلغت العاشرة من عمرها هجرت بيئتها الأولى ، وجاءت إلى الإسكندرية ، ودرست علوم العربية على بعض علمائها ، ثم اهتمت بصناعة الأدب ونظمت بعض القصائد وكتبت عدة مقالات في صحف مختلفة ، ووضعت كتاباً في تراجم شهيرات النساء الخ .. »

تعليق

ما أوردته فتحية أحمد غير مردود ، ولا اعتراض عندنا عليه ، اللهم ما عدا قولها إن زينب هاجرت من بلدتها وهي في العاشرة من عمرها .. لأن منطق العقل يمتنع عن قبول الحكم أن تكون قد تزوجت – للمرة الأولى من إبن بلدها التبنيني الحمودي الآنف الذكر وهي في العاشرة من العمر .. إلا أن تكون قد هاجرت صغيرة ثم رجعت بعد سنوات قليلة إلى تبنين وتزوجت . وهذا غير ثابت ولم يذكره أحد من المؤرخين الذين أوردوا ذكرها : والشيء الثابت أن زواجها الأول كان في تبنين ، ثم هاجرت بعد فشل هذا الزواج إلى مصر وتقديرنا أنها سافرت وهي في نحو العشرين من العمر أو دونها بقليل .

أخبار الوفاة

أما تاريخ وفاتها ، فقد كان على وجه التأكيد في ١٩ كانون الثاني سنة ١٩١٤ (★) واشتهار تاريخ وفاتها يرجع إلى الأهمية الأدبية والإنسانية التي اكتسبتها في حياتها، والشهرة الواسعة التي كانت لها . فكان من الطبيعي أن توليها الصحف والناس عناية خاصة ، شأنها في ذلك شأن كل « علم » من الأعلام يكون لوفاته صدى يتجاوب بالأسف على مدى شهرته :

وقد نعتها يومئذ مجلة العرفان إلى بني وطنها الأول ، بكلمة جاء فيها : (١)

« نعت الينا أنباء مصر المرحومة ، زينب فواز الكاتبة الشاعرة المؤلفة ، وأول إمرأة اشتهر اسمها في عالم الأدب والكتابة في الصحف : وقد نالت شهرة بعيدة في حياتها ؛ ونالت حظوة كبيرة عند كبراء مصر وسوريا .

(★) أورده خير الدين الزركلي الأديب السوري المعروف في كتابه « الأعلام » تاريخ تراجم أشهر النساء والرجال . نقلا عن جريدة « المشرق » . وقد أتى الكاتب على ترجمة زينب فقال « زينب بنت علي فواز بن عبيد الله بن حسين بن ابراهيم بن محمد بن يوسف فواز العاملي : أديبة ، مؤرخة ، من شهيرات الكاتبات ولدت في تبنين من قرى جبل عامل ببلاد الشام . وتعلمت بالإسكندرية ، وتتلمذت فيها للشاعر حسن حسني الطويراني صاحب جريدة « النيل » ، وكتبت واشتهرت ، وانتقلت إلى القاهرة ، وزارت دمشق ، فتزوجت بأديب نظمي الدمشقي وافترقا بعد قليل . فعادت إلى القاهرة وتوفيت بها في ١٩ كانون الثاني سنة ١٩١٤ . لها من الكتب : كتاب الدر المنثور في طبقات ربات الخدور ، وهو مجلد كبير من أفضل ما صنف في بابه (مطبوع) ، والرسائل الزينبية ، وهي مجموعة مقالاتها (مطبوعة) ، ومدارك الكمال في تراجم الرجال ، وديوان شعر جمعت فيه منظوماتها (مفقودان) ، وثلاث روايات أدبية هي : حسن العواقب ، والهوى والوفا والملك قورش . وكانت جميلة المنظر عذبة الحديث ، ومن خيرة بنات البيوت تربية وعلما . » اهـ .

(١) المجلد الخامس صفحة ١٥٩ العدد الصادر في ٢٧ كانون الثاني ١٩١٤ .

« وهي عاملية ولدت في قرية تبنين من أعمال صور . واطلعنا على كتابها الدر المنثـــور لنرى إذا كانت قد ترجمت نفسها فيه فلم نحظ ببغيتنا !

« هذه هي فقيدة الآداب العربية اليوم التي لم يعرف لها أهل هذا الجيل حقها ، شأنهم في عدم تكريم نوابغهم فضلا عن نابغاتهم . غير أن أرض مصر الطيبة التي تقدر النـــاس حق قدرهم أعلت مقامها حية وميتة .

« ولدت في تبنين من أبوين فقيرين ، وكانت جل نشأتها في مصر ، وبها عرفت واشتهر أمرها . وقدانتقلت لجواربها في الشهر الغابر عن عمر ذرف على الستين (السيدمحسن الأمين في أعيان الشيعة قال سبعين) ، تاركة آثاراً خالدة وذكرى جميلة تغمدها الله برحمته وأسكنهـــا فسيح جنته » .

أما صاحب « أعيان الشيعة » فلم يأت بجديد حين تحدث عنها (١) ، وكـــل ما أورده مأخوذ عن مجلة العرفان ، وبعضه عن آثارها المطبوعة . مع أنه ــ رحمه الله ــ كان معاصراً لها وكان أيقظ ذهناً وأكثر انفتاحاً على البحث والتقاط أخبار التاريخ ــ وخصوصاً التاريخ المحلي ــ من كل علماء زمانه . فلم يزد في ترجمة حياتها على القول : « إنها ولدت في تبنين ، ولأسرتها الوجاهة في البلد المذكور .. وكان لآل علي الصغير حكم قسم من جبل عامـــل ، ومقر إمارتهم قلعة تبنين ، وحاكمها يومئذ علي بك الأسعد . فاتصلت بزوجته السيدة فاطمة بنت أسعد الخليل ، والد محمد بك وخليل بك ، وتولت خدمتها ، وقضت شطراً من صباها في قلعة تبنين ملازمة لنساء آل الأسعد ، لا سيما السيدة فاطمة المذكورة التي كان لها مشاركة حسنة في الأدب ، واستفادت منها كثيراً الخ .. »

وقال السيد في غضون ما كتب عنها أنها عاشت نحو سبعين سنة .

ونحن مطمئنون إلى صحة هذه « الدالة » التاريخية على الشطر الأول من حياة زينب ، وأهم ما فيها أنها قضت هذا الشطر من صباها في قلعة تبنين » وفيها عرفت للمرة الأولى الحيـــاة الزوجية ..

الحياة الزوجية

ويتضح من مجموعة « الإفادات » التاريخية ، أن تجاربها الزوجية الثلاث كانت كلهـــا فاشلة .. أ والفشل بالطبع ليس فشلها هي ، بل فشل المجتمع الذي عاشت فيـــه ، وكانت بفطرتها سابقة له وهو متأخر عنها .. ومثل هذه « الزوجة » لا يمكن أن تلتقي بحالـــة من

(١) ج ٣٣ صفحة ١٧٤ ــ ١٨١ .

الحالات مع زوج من جيلها ونمط تفكيرها في عصر كعصرها .

لقد كان على الشابة الناشئة أن « تجرب » حظها في الميدان الذي لا بد للمرأة من دخوله فهي بفطرتها السليمة تدرك أن أولى رسالتها في الحياة – كامرأة – أن تكون « أماً » .. ومن أهدافها في الحياة ، أن تكون « زوجة سعيدة » .. فإذا تحققت لها هاتان الأمنيتـــان ، كان خيراً ، وإلا « فألف جهنم » وبئس المصير على (الرابطة) التي لا تعطي حياتها معناها المنشود .!

إنها حينئذ ، تفضل الرجوع – حال فشل الزواج – إلى كتابها وقلمها ، والتلذذ بالوحدة معها ، ما دامت حياتها خالية من طفل تهتم بشأنه ، أو زوج مثقف الروح والفكر يغنيهـــا عنهـا ... وهذا ما فعلت بعد ثلاث تجارب في كل من تبنين ، ودمشق ، ومصر ..!

أما التجربتان الأولى والثالثة – في تبنين ومصر – فلم نعلم عنهما شيئـــاً يذكر ، سوى ما قدمناه في فصل سابق وهو زواجها أولا من أحد الخاصة البكوية – الحمودي – ثم طلقها « لعدم امتزاج طباعهما (١) ... » . وبعد رجوعها من دمشق إلى مصر ، مطلقة من زوجها الثاني أديب نظمي الدمشقي ، تزوجت من ضابط مصري (أميرالاي) كبير .

---

(١) صاحب العرفان ج٦ ، م ٨ ، عام ١٩٢٣ . حدثنا عن زوجها التبنيني ، فقال : « رأيناه منذ خمس عشرة سنة (أي حوالي ١٩٠١) في دار كامل بك الأسعد ، وهو آنئذ في سن السبعين وأخبرنا البيك المومى اليه أن هذا الخادم الشيخ تزوج بزينب فواز ثم طلقها لعدم امتزاج طبعيهما .. واتصلت بضابط عسكري مصري كبير (أميرالاي) في قصة لم يتصل بنا تفصيلها ، فأحلها محلا كريما الخ ...

ومضى الشيخ يقول : « وبالإجمال ، فإن زينب فواز كانت في عصرها نسيجة وحدها ، وفريدة عصرها . وهي تعد أنبغ من باحثة البادية ومي ، لأنها وجدت في زمن لم يكن فيه للنبوغ النسائي العربي أثر ، فقد كتب يوسف حمدي بك يكن مقالة في مجلة « المرأة المصرية » لصاحبتها السيدة بلسم عبد الملك ، إنه كان في « فاروق » سنة ١٩٠٠ ، وقد قرأ لثمانين كاتبة تركية كتابات راقية ، ولما عاد إلى مصر لم يسمع إلا باثنتين : السيـــدة عائشة تيمور والسيدة زينب فواز ، ولم يذكر أن الأولى مصرية والثانية عاملية – لبنانية – لأنه لم يعرف حقيقة أمرها .. بل لقد سمعنا أن بعض العامليين أنفسهم ينكرون عليها نبوغها الفائق ، ولهذه الأمة التي بلغ منها الجهل أن تنكر فضل أبنائها !

أمة قد فتّ في ساعدها   بغضها الأهل وحب الغربا!!

وكانت رحمها الله صادقة الود ، حافظة للعهد ، فقد أعجب كامل بك الأسعد باحتفائها به ووفائها العجيب حينما عرج على مصر والتقى بها . » وختم الشيخ كلامه بهذه الجملة المؤثرة الصادقة:

« لقد ذهبت زينب فواز لسبيلها .. فمن نبغ من بعدها من العامليات – بل من اللبنانيات .. – نبوغا ملأ الصحف والطوامير » ؟..

– الكاتب –

لقاءها مع آثارها وتلميذها في دمشق !

منذ قدمت إلى دمشق عام ١٩٥٢ ، وأقمت فيها موظفاً صحفياً (١) ، آليت على نفسي أن أبحث عن آثار زينب فواز وأخبارها ، فقد كنت أعلم أنها قضت شطراً قليلا من حياتها في العاصمة السورية ، حين كانت زوجة لأديب نظمي الدمشقي ، وهو أديب معروف في ذلك الوقت (١٨٩٦ ـ ١٩١٤) .

ما كان أسعد تلك الساعات الطويلة التي كنت أقضيها كل يوم في المكتبة الظاهرية ، باحثاً منقباً حتى عثرت على ضالتي العزيزة بعد جهد يسير على أفضل ما أروم وأحب .. وأي باحث صابر لا يعثر على ضالته في المكتبة الظاهرية مكتبة الشرق الأولى ، وحاوية علوم الأولين والآخرين .. ؟

ما كان أسعد تلك الساعة التي جلست فيها على المقعد (٩) ، مع عشرات من طلاب الجامعة والأساتذة والباحثين الذين يؤمون الدار الكبرى كل يوم للبحث والمطالعة ..

كان الزمان خريفاً ، والعام ١٩٥٣ ، والعهد في سوريا عهد أديب الشيشكلي الصارم .. وكان جميع أساتذة الجامعة وطلابها في (إجازة) غير محدودة .. لأن الإضرابات كانت متوالية احتجاجاً على سياسة سيد العهد .. ! ولذا ، تحولت قاعة المطالعة في الظاهرية إلى «جامعة» .. فكانت غبطتي مزدوجة بهذا الإتفاق .. إذ تسنى لي في ذلك الحين أن أتعرف إلى كثير من خيرة الإخوان والأساتذة وأسترشدهم للوقوف على أخبار زينب وأديب نظمي الدمشقي ..

وما هي إلا فترة قليلة قلبت فيها فهرس الكتب حتى عثرت على «الدر المنثور» ورواية «حسن العواقب» تحت الرقم (م - ٦٣٩) . إني لأذكر شعور الغبطة الذي امتلأ به قلبي في تلك اللحظة فأغتبط ثانية وأعتز .. لقد كنت كأنما لقيت بنت البلد بالذات .. وأنها جالسة معي تحدثني عن ماضيات حياتها وحياة بلادي قبل قرن من الزمن كيف كانت .. !

كانت النسخة التي عثرت عليها من «الدر المنثور» تحمل على أول ورقة منها العبارة التالية : «هدية المرحوم رفيق بك العظم لمكتبة الملك الظاهر بدمشق . سنة ١٩٢٥» .

وكم كانت غبطتي عظيمة حينما وجدت نسخة (وحيدة) من الدر المنثور وحسن العواقب في (مكتبة عبيد) الشهيرة باحتواء الكتب القديمة . ولكن عبيد رفض أن يبيعهما لي إلا بثمن خيالي لأنهما في زعمه نسختان (نادرتان) ، وهو من عادته ـ وهي عادة صاحب كل مكتبة قديمة – أن لا يبيع الكتب النادرة إلا بأثمان خيالية .. ولكنه ما لبث بعد مجادلة قليلة أن راجع فكره .. ورفض أن يبيعهما أصلا حتى بثمن خيالي ..! وكان لا بد لي حيال

---

(١) المكتب الصحفي لرئاسة الأركان ، ثم وزارة الدعاية والأنباء (١٩٥٢ - ١٩٥٨)

مطامعه الإبراهيمية (★) أن أستعمل « سلطاني العسكرية » المستمدة في ذلك الحين من وجودي في المكتب الصحفي الشيشكلي فوسطت من أمر صاحب المكتبة ببيع الكتابين لي حالا وبأدنى ثمن .. وهكذا حصلت على بغيتي ..!

تلك هي خلاصة حكاية لقائي الأول مع آثار زينب في دمشق .. بيد أن لقائي مع أحد تلاميذها كان مفاجأة أكبر وأجدى ـ الأمر الذي كنت أحلم به ولا أنتظر وصوله بالفعل.

ففيما أنا بصدد البحث عن آثار أديب نظمي الدمشقي - زوجها الثالث ـ في المكتبة الظاهرية التقيت بين جمهور المكتبة بمن أخبرني إنه يوجد إنسان في دمشق، لا يزال حياً يرزق، كان تلميذاً مرافقاً لزينب فواز طيلة وجودها في دمشق، وهو يعرف عنها وعن زوجها أديب نظمي الدمشقي ما لا يعرفه أحد؟!.

فمن هو هذا (التلميذ) الكبير وما هي أخباره عن زينب وزوجها الدمشقي، وكيف وصفهما، وكيف عاشا وكيف افترقا إلى غير لقاء ..؟

سأعطيك الجواب على ذلك كله بعد شهر إن شاء الله ..!

محمد يوسف مقلد　　　　　　　　　　بيروت

(★) نسبة إلى صاحب مكتبة معروف في بيروت ،وهي موضع قولنا مطامع أشعبية..